

قراءة في بيان "هيئة تحرير الشام" الأخير حول اتفاق موسكو

إعداد: وحدة تحليل السياسات

نشرت "هيئة تحرير الشام" عبر حساباتها الرسمية بياناً تحت عنوان "اتفاقية موسكو.. سراب جديد"¹، سنحاول تحليل بيانهم الأخير من خلال استعراض أهم المفردات الرئيسية فيه، ثم مقارنة البيان مع بيان سابق لـ "جبهة النصرة"، التنظيم الذي وُلدت من رحمته "هيئة تحرير الشام"، للوقوف على أهم التحولات في الخطاب، مع ربطها بتحويلات السياق الزمانية والمكانية.

مفردات رئيسية، تركيز على الثورة والقيم المرتبطة بها:

يلاحظ من خلال استعراض البيان تكرار مفردة الثورة أو ما هو قريب منها 13 مرة²، أما مفردة الجهاد فقد وردت بشكل أقل (4 مرات)، مع إرفاقها بمفردات ذات علاقة بالثورة أحياناً³، إضافة إلى معان عامة عن الدفاع عن الأوطان واسترداد الحقوق.

تحول كبير في الخطاب عما كان عليه لدى التنظيم الأم (جبهة النصرة):

في العام 2014، وقّعت العديد من الفصائل الثورية على بيان "ميثاق الشرف الثوري"⁴، ووردت فيه العديد من المعاني الثورية التي اعتُبرت تحولاً في خطاب بعض الفصائل الموقعة، كحركة أحرار الشام في ذلك الوقت، وقامت "جبهة النصرة" بالرد على ذلك البيان، وسنقوم باعتبار بيان الرد من قبل "جبهة النصرة" عينة للمقارنة، لارتباط البيان الأخير لـ "هيئة تحرير الشام" بمعان مشابهة وردت في "ميثاق الشرف الثوري"، ولدى مقارنة بيان "جبهة النصرة" حينها مع البيان الأخير لـ "هيئة تحرير الشام" نلاحظ اختلافاً كبيراً، حيث كانت المفردات السائدة متعلقة بالجهاد، والمجاهدين، وأهل الشام (دون ذكر السوريين)، وحاكمية الدين، والدفاع عن "المهاجرين"، ووردت الثورة السورية مرة واحدة باسم

¹ ينظر البيان على موقع شبكة إباء الإخبارية المقربة من "هيئة تحرير الشام"، <https://ebaa.news/news/news-details/2020/03/66522>.

² وردت في البيان ضمن جمل: (حريتهم وكرامتهم)، (الثورة السورية المباركة)، (عاصمة الثورة)، (الموت ولا المذلة)، (فلا عودة أو تنازل عن أهداف الثورة المباركة)، (ثورتنا)، (يغدر بالثورة مرة أخرى)، (شكر الحكومة التركية الداعم للثورة السورية)، (فلا نصر لثورتنا)، (فهي ثورة عظيمة)، (أبنائنا المجاهدين الثوار)، (تحقيق أهداف الثورة)، (سوريا حرة كريمة أبية).

أما كلمة الجهاد فقد وردت بشكل أقل (4 مرات) على الشكل التالي: (أبنائنا المجاهدين)، (الجهاد والمقاومة)، (المجاهدون هم محور).

³ وردت في البيان ضمن جمل: (أبنائنا المجاهدين)، (الجهاد والمقاومة)، (المجاهدون هم محور)، (أبنائنا المجاهدين الثوار).

⁴ ينظر البيان: <https://syrianoor.net/article/11017>.

"الثورة السورية الإسلامية المباركة"، إضافة إلى الحديث عن "الخلافة الراشدة"، وتصادم الأخوة الإيمانية مع المواطنة والانتماء للوطن⁵.

في المقابل، نجد في الخطاب الأخير لـ "هيئة تحرير الشام" التركيز على ألفاظ وأدبيات الثورة السورية، كـ "الثورة السورية المباركة" (دون نعتها بالإسلامية)، و"الحرية والكرامة"، و"الموت ولا المذلة"، والملاحظ بأنه تم إرفاق مفردة "المجاهدين" بمفردة "الثوار"، مما يوحي بالانزياح تجاه الأدبيات الثورية، كما تم إرفاق مفردة "المقاومة" إلى جانب مفردة "الجهاد"، وهي إرفاقات لم تكن معهودة في بيانات "جبهة النصرة" والجماعات الشبيهة.

لوحظ كذلك استخدام كلمة الشعب السوري، والشعوب بدلاً من الأمة، الكلمة التي كانت سائدة في خطابهم/خطاباتهم السابقة، وهو التعبير المعهود من الجماعات المماثلة العابرة للحدود، وكذلك استخدام كلمة الناس (وليس المسلمين، وفي نفس الوقت لم يستخدموا كلمة المواطنين بعد). وفي حين تم السكوت عن قضية المواطنة والرابطة السورية في البيان الأخير، كان الهجوم كبيراً عليها في بيان الرد على "ميثاق الشرف الثوري"، حيث اعتبروها "رابطة ترابية جاهلية" تناقض الانتماء للدين كما أسلفنا.

ولدى استعراض أحد بيانات "هيئة تحرير الشام" في العام 2017، والمعنون بـ "روسيا محتلة لا حليفة"⁶ كعينة أخرى، نجد بأن البيان زاوج بين الخطاب الثوري و"الجهادي"، حيث استخدم تعبير "الثورة السورية المباركة" و"ثورة الشعب الأبى وجهاده المبارك" إلى جانب "مكتسبات جهاد أهل الشام" و"النظام النصيري"، وهو ربما يُمثّل مرحلة وسطى بين بيان الرد على ميثاق الشرف الثوري في العام 2014، والبيان الأخير في العام 2020.

اللافت أنه وفي البيان الأخير، تم التشديد على ضرورة تحقيق أهداف الثورة إلى "أن تعود سوريا حرة كريمة أبية"، وهي العبارات التي ورد ما يشبهها في "ميثاق الشرف الثوري"، والتي انتقدها بيان "جبهة النصرة" سابقاً بشكل حاد في الرد على الميثاق، معتبرين أن ذلك يعني تلميحاً للقبول بدولة مدنية، وأنهم لن يقبلوا بدولة لا تقوم على حاكمية الشريعة، وأشاروا في بيانهم وقتها إلى الخلافة الراشدة.

⁵ ينظر البيان: <https://justpaste.it/fjdk>

⁶ ينظر البيان: <https://www.enabbaladi.net/archives/176870>

لملح آخر لاتساع الهوة في الخطاب يتمثل بالشكر الصريح للحكومة التركية، مقارنة مع انتقاد "جبهة النصرة" الشديد في بيانها المذكور مجرد الحديث والتلميح لإمكانية التعاون مع الدول الاقليمية، معتبرين بأن الدول الاقليمية "متآمرة على الاسلام وأهله وعلى الخلافة الراشدة".

تحول براغماتي مؤقت أم مراجعات حقيقية؟

لا ينفصل البيان الأخير عن محاولات التنظيم لتغيير موضعه في إطار محاولاته للبحث عن الشرعية، حيث بدأ التنظيم باسم "جبهة النصرة لأهل الشام" كفرع سري ل تنظيم "دولة العراق الإسلامية"، ثم كفرع علني لتنظيم "القاعدة" بعد خلافه مع تنظيم "داعش"، ثم تحولت الجبهة لاسم "جبهة فتح الشام" معلنة فك ارتباطها بالقاعدة، وصولاً إلى اسم "هيئة تحرير الشام"، وفي كل التحولات السابقة، بدا أن العوامل البراغماتية للحفاظ على زعامة الجولاني للتنظيم واستمراره كانت العوامل الأكثر تأثيراً، فهو احتذى بتنظيم القاعدة لأخذ الشرعية من الحاضنة الداعمة للتنظيم ضد "داعش" عندما أعلن البغدادي عن كونهم فرعاً لدولته، ثم تدرج الجولاني في التحولات البراغماتية للتخلص من إرث "تنظيم القاعدة" ومحاولة الحصول على الشرعية المحلية والاقليمية، من خلال فرض نفسه كلاعب رئيسي في البيئة المحلية.

كما يأتي البيان الأخير بعد اللقاء الإعلامي الذي أجراه الجولاني قبل فترة وجيزة مع منظمة أزمات الممولة اورياً، والمقربة من بعض صناعات القرار، وعادة ما يمكن أن تعمل بعض المراكز المشابهة كقنوات خلفية ممهدة للوساطات، وقبل فترة أيضاً، وفي تصريح ذي دلالة، قدم المبعوث الأمريكي إلى سوريا جيمس جيفري توصيفاً جديداً نسبياً ل "هيئة تحرير الشام" معتبراً بأنها "ركزت على قتال نظام الأسد ولم يُشهد لها تهديد على المستوى الدولي منذ فترة من الزمن"، وبأنها "تُعرّف عن نفسها بأنها تمثل مجموعة معارضة وطنية تضم مقاتلين وليس إرهابيين، ولكننا لم نقبل بهذا الوصف بعد"، مما يشير إلى لهجة جديدة وملاحظة وتفاعل من قبل الأميركيين ولو بشكل طفيف، ولربما يمكن القبول بهذا التوصيف لاحقاً⁷.

كما ظهرت تسريبات جديدة تدعم ما سبق مؤخراً، حيث تحدث رئيس الاستخبارات العسكرية التركية السابق اللواء إسماعيل حقي عن وجود اتصالات بين الولايات المتحدة و "هيئة تحرير الشام"، مؤكداً انعقاد عدة لقاءات بينهما، وأن واشنطن تريد استخدام ورقة "هيئة تحرير الشام" ضد روسيا⁸.

⁷ المبعوث الأمريكي إلى سوريا يُقِّم وصفاً جديداً ل "هيئة تحرير الشام".

⁸ مسؤول تركي سابق يكشف مفاجأة من العيار الثقيل حول "تحرير الشام" ويوضح إمكانية توصيل موسكو وأنقرة لاتفاق بشأن ادلب.

يأتي هذا متزامناً مع عقد صفقة وصفت بالتاريخية⁹ بين الولايات المتحدة وطالبان بعد جهود طويلة قامت بها الولايات المتحدة عبر وساطات لفصل طالبان عن القاعدة وقبولها كحركة محلية، وهو ذات المسار الذي يحاول "الجولاني" اتباعه من خلال تصريحاته بشكل واضح.

بناء على ما سبق، تبدو حالة الانزياح في خطاب "هيئة تحرير الشام" نحو الخطاب الثوري، مع التخلي التدريجي عن مفردات الخطاب "الجهادي التقليدي" متسقة مع مسار التنظيم المتجه نحو محاولة شرعنة نفسه كقوة محلية لا تشكل خطراً على الأمن الاقليمي والعالمي.

هل تنجح محاولات الجولاني في شرعنة تنظيمه؟

في الواقع، يبدو من الأرجح بأن تلك المحاولات متأخرة جداً، وربما فات أوانها، خاصة أنها تأتي بعد أن فقدت "هيئة تحرير الشام" الكثير من أوراقها الداخلية ومشروعيتها الشعبية بعد خسارة العديد من المناطق في الحملات الروسية المتتالية على الشمال السوري، وسط انتشار الأخبار عن تنفيذها انسحابات غير مبررة من المناطق دون مقاومة تذكر، علاوة على ذلك، لا تقترن محاولات "هيئة تحرير الشام" تلك بمراجعات حقيقية لنهجها السابق سواءً الفكري المنهجي المتطرف أو السلوكي في التعامل مع الفصائل والمؤسسات الثورية الأخرى¹⁰، خاصة وأنها شنت حرباً مفتوحة على العديد من الفصائل العسكرية والفعاليات المدنية، وأنهت العديد منها واستولت على أسلحتها وممتلكاتها، وتسود حالة من فقدان الثقة بـ "هيئة تحرير الشام" وقيادتها الحالية من قبل باقي الفصائل والمؤسسات، واعتبار عدد منهم التحولات الأخيرة مجرد تحولات براغماتية تكتيكية بحتة، لا تتسم بالمصداقية، مما يعني في نظرهم استمرار النهج السابق، الأمر الذي سيُسهم في مزيد من الإضعاف لمشروعيتها "هيئة تحرير الشام" الشعبية، وهي الورقة الأكثر أهمية لها عملياً حتى في نظر الفاعلين الخارجيين¹¹، مما يعني أن ذلك سيحدُ عملياً من نتائج الجهود والتحولات الأخيرة.

⁹ ينظر: اتفاق تاريخي بين واشنطن وطالبان تنسحب القوات الأمريكية بموجبه من أفغانستان خلال 14 شهراً.

¹⁰ خاصة مع حديث الجولاني عن مجرد "أخطاء" بحق الفصائل الأخرى، دون الاعتذار عنها، ويتسق هذا الفهم مع النهج العام للجولاني و"هيئة تحرير الشام" حتى الآن.

¹¹ وهي الورقة التي تتمتع بها حركة طالبان في بيئتها المحلية الأفغانية بشكل نسبي، خاصة مع وجود روابط وامتدادات اثنية وقبيلية داعمة لها في سياقها المحلي، فضلاً عن ثقلها العسكري، والإطار الجغرافي والإقليمي الذي توجد فيه.